والحقيقة أن هذه الخواطر ملكت عقل العقاد وراح يتناولها بأساليب مختلفة بعض الاختلاف ، فاذا كانت الضرورة من قبيل الاستسلام فإن الحرية ليست بسبيل من التمرد المطلق ، وقوام الأسرين فى نظر العقاد أن تجعل من القانون حرية ، ومن القيود حلية ، ومن الثورة نظاما ، ومن الواجب شوقا وفرحا . هذا هو المثل الأعلى فى الحياة ، وهذا هو لباب فنها الإلهى الذى يلتقى فيه ـ كما يلتقى فى فنوننا ـ قيد الوزن وفرح اللعب ، ويتعانق على يديه الخيال الشارد والقافية المحبوسة . وربما وافق هذا فى قول العقاد قول كاتبة نابغة فى بعض سطورها : قضبان النوافذ فى السجن تنقلب أوتار قيثارة لمن يعرف أن ينبت فى الجماد حياة . (لنتأمل هنا فى ثورة العقاد على مفهوم الدلالة الوضعية) .

كانت البلاغة تبحث عن تناسب ، ولكن ما التناسب ؟ ولأى شىء يعجبنا ؟ التناسب تابع لوظيفة الحياة ، وليست وظيفة الحياة تابعة للتناسب ، مامن حسناء تعدل بالرشاقة صفة من صفات الملاحة ، وليست الرشاقة إلا خفة الحركة التى تدل على أن وظائف الحياة حرة فى جسدها ، تخطو وتتلفت ، وتشير ، وتختال ، بلا كلفة ولا معاناة ، وما من سهو ولا مصادفة كانت الأمم المستعبدة ضعيفة الميل الى الرشاقة ، تؤثر الأجسام الغليظة المترهلة على الأجسام الممشوقة المستوية ، إنما كان ذلك هواها لأن الحياة فيها مرهقة ، والحرية فيها ضيقة ، فهى أميل إلى البطء والتراخى إذ كانت حياتها بطيئة متراخية ، وهى أهون من أن تهيم بالرشاقة إذ كانت لاتحب الحرية ولا تعمل لها ولا تحس فى نفوسها الحاجة إليها .

ويمضى العقاد فيقول : الفكر الجميل نصفه بأنه الفكر الحر ، لا ترين عليه الجهالة ، ولا تغله الخرافات ، ولايصده عن أن يصل الى وجهته صاد من العجز والوناء . حتى الأخلاق ، مامن جميل فيها إلا كان جماله على قدر مافيه من غلبة على الهوى ، وترفع عن الضرورة ، وقوة على تصريف أعمال النفس فى دائرة الحرية والاختيار .

وخلاصة الرأى أننا نحب الحرية حين نحب الجمال ، وأننا أحرار حين نعشق من قلوب سليمة صافية ، فلا سلطان علينا لغير الحرية التى نهيم بها ، ولا قيود فى أيدينا غير قيودها .

كان العقاد يرى شئون الحكم الأدبى لاتنفصل عن محبة الحرية على النحو الذى